مداخلة

تجربة المنتديات: من نفق التجربة إلى أفق الحوار

لحظة تأمل: للخروج من النفق إلى أفق

إن الخروج من نفق التجربة الصماء إلى أفق المعرفة الرحبة يمر عبر الآخرين، لأن من لا يعرف الآخرين ويتفاعل معهم من موقع الندية والاختلاف والاعتراف لا يعرف لنفسه إلا ذاتاً ناقصة، فلا وجود لذات، سواء أكانت جمعية أم فردية، مكتفية بذاتها، فكل ذات تحتمي في ذاتها فقط، وتكتفي بمعرفتها لذاتها، وتبقى في نطاق محدوديتها رهينة عجزها ونقصها، فلن تنتج إلا حلولاً ناقصة لنواقصها وعلاجات عاجزة لعجزها.

والآخرية بهذا المعنى لا تشكل مرآة للذات فقط، التي تشكل بدورها مرايا الآخرين، ولكن كل ذات بشرية تشكل نافذة ثقافية للذوات الأخرى، وممراً نحو ممكنات أرحب، ولذلك كلما انفتحت الذات على الآخرين، تعددت مصادرها المعرفية، وتعددت العلاجات المقترحة لقصوراتها.

لهذا، نجتمع اليوم لنرى صورنا في مرايا متعددة، ولنؤكد أننا شرعنا في تجربة المنتديات وسنستمر، ونحن نرى أن التفاعل الخلاق مع الآخرين ينطلق من معرفتهم والاعتراف بهم، ولذلك رفعنا شعار الحوار والتفاعل في وجه الواحد المطلق، والتخطيط والتفكير في مواجهة العفوية، وفي مواجهة التقليد والروتين نرفع شعار الارتجال الإبداعي، وفي مواجهة طغيان الجماعة نصر على كينونة الفرد وتميزه، وفي مواجهة التفرد والمركزية نكرس العمل الجماعي التعاوني، وفي مواجهة المؤسسة نعيد الاعتبار للخيال والحدس والشعور كسياقات وتقنيات لبناء الذات الإنسانية في مواجهة محاولات سحقها من قبل الواقع التسلطي وقوى الشر الرهيب، بغية إعادة بناء المعنى والمخيلة والعالم.

واقع التجربة

من خلال العمل مع المعلمين في الدورات والمساقات، ظهرت جلياً رغبتهم في تنمية كفاياتهم وقدراتهم الثقافية والمهنية، ومن العمل في مشروع المنتديات تبدت طاقاتهم على الفعل والإبداع والعمل الجماعي في مجالات:

- التأمل في تجاربهم.
- التفاعل الحواري لتعميم المعرفة وتعميق الثقافة فيمابينهم.
- خلق حالة حوارية على مستوى المجتمع المحلي.
- ربط المدرسة بشكل فاعل بالمحيط الاجتماعي.

آفاق للتطوير

لكن ما نهدف إليه، ونؤكد على ضرورة الاهتمام به، وسنعمل معاً على استكشاف ممكناته وآلياته، هو:

- كيف يساهم معلمو المنتديات في تغذية الحالة البحثية وتطويرها للإسهام في إنتاج المعرفة بشكل تشاركي.
- كيف يفعِّل معلمو المنتديات دورهم المجتمعي كمثقفين يهتمون بالشأن العام على جميع مستوياته الثقافية، والتربوية، والبيئية، والسياسية، والاجتماعية.

العلاقة مع المركز

كيف نؤسس لعلاقة مع المركز، علاقة تفاعلية تشاركية؟ تقوم على التحاور والتكامل في الشكل والاشتباك الاختلافي في الجوهر، ما يؤسس لتفاعل يستند إلى وحدة الهدف والتوجه، وتنوع الانشغالات والنشاطات من منطلق الخصوصية المكانية والتخصصية لكل منتدى من جهة، وضرورة التميز والإبداع من جهة ثانية، لكن لا بد من علاقة تفاعلية توظف إمكانيات كل منهم في تفعيل دور الآخر وعمله، بما يحقق المبادئ العامة التي توجهنا:

- تنمية المعلم ثقافياً للخروج من حالة المختص والتقني إلى فضاء المثقف الناقد، حيث الأول ينطبق عليه تعريف غرامشي للمثقف السلطوي الذي يقنن وينظم الإكراه السلطوي، في حين أن الثاني ينسجم مع رؤية سارتر للمثقف الناقد، باعتباره الشخص الذي يتجاوز دوره التقني والاختصاصي ويتدخل في الشأن العام.
- تحرير التعليم من صيغته المؤسسية الامتثالية، ولذلك، عندما نقول تغيير التعليم فإننا لا نعني تغيير أسلوب مكان آخر، ولا وضع نص مكان نص آخر، وإنما نقصد إعادة التعليم إلى مكانه الطبيعي كحالة تثقيف جماعية وتحويل اجتماعي لا تخفي انحيازها للجمالي والإنساني والوطني، ولا التزامها بقضايا الإنسان الكبرى وصراعاته المصيرية، ما يتطلب معلماً متمرداً على المؤسسة،

وحقيقة تبنى خارج فضاءات الامتثال والانصياع.

- وضع المدرسة في فضائها الاجتماعي من خلال فهم الثقافة كسياق تربوي، تدخله التربية كفعل تساؤلي نقدي يتغيًا التغيير والتحويل الاجتماعي، بشكل ينشط حركة التاريخ وينحاز للمهمش اجتماعياً وثقافيا.

نلتقي اليوم لنحتفل بالانطلاقة ونقيم التجربة

إن تجربة المنتديات لم تبدأ الآن، وإنما بدأت منذ فترة، بدأت من اللحظة التي بدأتم فيها العمل، ولذلك فنحن اليوم نحتفل بمناسبة مضت وأصبحت من التاريخ، والتجربة لم تكتمل ولم يحن موعد مراجعتها وتقويمها، ولذلك فنحن نحاكم لحظة لم تحن بعد، ولكننا لن ننتظر نضوج التجربة أو نهايتها حتي نقيمها، فإذا ما انتظرنا لحظة الاكتمال، فإنها لن تأتي، فلا اكتمال في العمل المرتجل دوماً نحو الكمال، ولا كمال للعمل المكتمل بنقائضه، لأن النضوج كرديف للنهاية يعني الموت، وتقييم الأموات عمل لا يفيدهم نفعاً، ففاعلية التقييم ترتبط بتوقيته لا بمضمونه فقط، ولذلك ارتأينا أن نلتقي اليوم لنحتفل معاً ببداية تجربة المنتديات، ليس بداية الفعل فقط، وإنما بداية ظهور الأثر، نحتفل بيوم من العمل، عمل في تقييم تجربة لن ننتظر حتى تنتهي لنقيمها؛ فالتقييم جزء من العمل وليس نهاية له، ولذلك، فإننا من البداية لم نرَ في تجربة المنتديات مرحلة محددة في مسيرة تطويرية منجزة وجاهزة، ولا حلقة في

مسلسل كتبت سيناريوهاته وصمم شكله الإخراجي، ولا طابقاً جديداً يضاف إلى عمارة معرفية أو مؤسسية فيبني على الطوابق السابقة له، ويؤسس لبناء يشيد فوقه مرة أخرى ويتحدد موقعه وتتضح وظيفته، وإنما أردنا له كتجربة أن يكون المصعد الذي يتحرك بين كل طبقات العمارة، وينفتح على كل مكوناتها ويربطها مع بعضها البعض بشكل تنافذي.

ولذلك فالمنتديات تربوية لكونها خاصة بالمعلمين، وثقافية لكونها مشغولة بالهم الثقافي، واجتماعية لأنها تنطلق من موضعة الثقافي والتربوي في نطاقه الاجتماعي، وهي تنويرية تغييرية لكونها تنشد التغيير الذي تراه الوظيفة الأولى للثقافة والتربية ومبرر وجودهما، وهي فضاءات مجتمعية لأنها تسعى لربط المدرسة بالمحيط الاجتماعي وإعادة وضع المعلم في الحقل الاجتماعي كمساهم في فعل التغيير والتحديث عبر استعادة دوره الثقافي، والتوطن من جديد في المجتمع من منطلق أن التربية هي في جوهرها فعل ثقافي سياسي تغييري منحاز لقضايا الوطن وقضايا الإنسان، ما يعني أن كل معلم هو مقاتل في جبهة الفكر، وهو مناضل في ساحات الثقافة، مشتبك دوماً مع قوى الهيمنة والاستغلال، ومع القيم البائدة والأفكار الرخيصة، والنزعات التغريبية والاستهلاكية والتفريغية، منحاز للإنسان وحريته وكرامته، للوطن وسيادته، للعالم وصلاحه، للبيئة ونقائها.

ومن هذه المنطلقات، ومن فهمنا للتجربة، ارتأينا لها من البداية أن تتحرك على الحواف، تجربة ذات أساس نظري مشوش، وممارسة عملية مفتوحة، بشكل يجمع بين حكمة النظرية وعقلنتها من جهة، وفضاء التجربة ومغامرتها من جهة ثانية، ولذلك، لم نحدد الشكل الأمثل للمنتديات، ولا الصيغ العملية بشكل ثابت، ولكننا اكتفينا بوضع بعض الخطوط العامة كمرتكزات إستراتجية:

- المنتديات فضاءات للحوار التربوي، والتنمية الثقافية للمعلمين، والإنتاج التشاركي للمعرفة.
- تهدف إلى الارتقاء بالمعلم إلى مصاف المثقف المقلق للروايات الرسمية، والمسهل لميلاد حكايات الناس وقضاياهم.
- ربط المدرسة بالمجتمع، باعتبارها مرجلاً ثقافياً وفكرياً يزود المجتمع بالثقافة الضرورية لبقائه محصناً ومتنامياً.
- تطوير حالة البحث والكتابة في المواضيع كافة ذات العلاقة بالتربية والثقافة والمجتمع والتاريخ.

نتساءل دوماً: متى ستظهر نتائج عملنا هذا؟ وكيف سيكون شكل ظهورها، لا نعتقد أننا سنرى ذلك في القريب، ولا نريد أن نراه مجرد تطوير لأشكال التعلم وصيغ التعليم أو مجرد تفعيل لمصادر المعرفة، وتحسين لقدرات الطلاب أو المعلمين، ولكننا نتمنى ونهدف إلى رؤيته كنتاج اجتماعي وطني ثقافي وحضاري، من خلال تشكل حالة ثقافية فاعلة يلعب فيها المعلم والمدرسة والطالب دور الفاعل والمشكل والمؤسس والمغذي.

التجربة تفاجئنا دوما بسلبياتها كما تفاجئنا بانجازاتها

معلمة من منتدى طولكرم تقول لـ د. فؤاد المغربي، المدير العام لمركز القطان للبحث والتطوير التربوي: "أنا معلمة من المنتدى حضرت مساقين في طولكرم، وحضرت مؤتمر مركز القطان في رام الله، وأنا الآن في نابلس لحضور ورش مركز القطان، ولو تذهبون إلى الخليل سنلحق بكم إلى هناك". هذا ما اعتبرناه انجازاً لمنتدى، انجازاً لأنه بنى علاقة عضوية وحقيقية بين جزء من جسم المعلمين والمركز بشكل داخلي وحميمي، بحيث أصبح المركز من وجهة نظر معلمي المنتديات مركزنا، هذا جزء من انجازات المنتديات. الكتابة في **رؤى تربوية** انجاز آخر، مجموعة من أعضاء المنتديات كتبوا لمجلة **رؤى**، والأهمية تكمن في أن يكتب المعلمون والمعلمات تجاربهم، خبراتهم، يتأملون فيها، يعيدون التفكير، يحولون التجارب الصماء والخبرات الصامتة إلى وعي ناطق، ينطق بالتجربة ويستنطقها، يحكيها لكاتبها ليتأمل فيها ويطورها، ويحكيها للآخرين ليحاكوها ويسائلوها وينتقدوها، يعمقها ويترجمها إلى فكر، فكر يتراكم ومعرفة تبنى ليس أمامنا من خيار آخر.

منتديات أخرى تصمم صفحة إلكترونية خاصة بها لتفعل من تواصلها وتزيد مساحات الاتصال بين أبناء وطن مبتلى بالجدر والحواجز، وثالث لا يكتفي باللقاء الدوري بين معلمين يحصرون نشاطهم في الاختصاص التربوي المحض، بل ينفتحون على المجتمع في ندوات ثقافية وأمسيات شعرية ولقاءات أدبية، ما يربط المنتدى بالوسط المجتمعي ضمن صيغة ثقافية فاعلة، لكن العمل يبقى مجزراً أو منفصلاً: التربوي في جزيرة، والثقافي في الأخرى، والفعل يراوح بينهما دون أن يمزجهما ويفاعل بينهما بشكل تصبح الثقافة فيه سياقاً تربوياً، والتربية فعلاً ثقافياً. ومنتدى رابع لا تكفيه اللقاءات الدورية الطارئة، فيؤسس مقراً ومكاناً يلتقي فيه المعلمون بشكل شبه دائم، ما يجعله يقارب في شكله الملتقى الثقافي أو المؤسسة النقابية، ليمارس فعلاً يومياً ولقاءً متواصلاً يثمر لقاءات مكثفة ونشاطات نوعية، تبدأ بمناقشة الكتب وعروضها ومشاهدة الأفلام ومحاورتها، وتنتهي بتنظيم مسابقات وجوائز في الإبداع الأدبي والثقافي.

إن هذه التعددية في الصيغ وما ينتج عنها من تنوع في الأشكال والنشاطات، تعكس في حقيقتها اختلافات في الجوهر وفي الفهم لمفهوم المنتدى، ذلك الاختلاف الذي يعتبر علامة صحة وعافية من جهة، وفرصة للتطوير والتفاعل والملاقحة من جهة ثانية، ولذلك نلتقي اليوم لنسأل: كيف نحافظ على هذا الاختلاف ونفعل الاستفادة منه؟ الآن لدينا عدد من المنتديات وليس نسخاً من منتدى واحد، اليوم لدينا تجربة حقيقية لأن كل منتدى سيجد أمامه مجموعة من المرايا ومجموعة من النوافذ التي تريه صوراً مختلفة لذاته، وتطل به على شرفات متنوعة من الخبرة.

وعلى الرغم من هرم النجاحات والإنجازات التي تحققت من خلال تجربة المنتديات، فإننا ما زلنا نرى أن إمكانيات المعلمين أكبر مما ظهر منها حتى الآن، وسنرى ما لم يتحقق دوماً لنلهث في سبيل الوصول إليه، نلتقي اليوم لنفكر معاً، ونسأل معاً: ماذا يمكننا أن نفعل؟ ما الجوانب والحقول التي أغفلنا العمل فيها؟ كيف نعمق التجربة ونفعل دورها في الإنتاج المعرفي والإبداع الثقافي والفعل الاجتماعي والتنمية المجتمعية؟ وهل نركز جهودنا القادمة في مجالات القراءة والفعل التثقيفي أم في البحث والكتابة؟ هل نعمل مع عدد محدود من المعلمين أم ننفتح على الجمهور الواسع منهم؟ وأيهما أجدى؟ وكيف؟

ونلتقي لنسائل فعلنا السابق ونشرع في طرق أبواب القادم:

- كيف نفعل في المحيط دون أن تأخذ أنشطتنا الطابع الاحتفالي؟
- كيف ننخرط في الفعل الثقافي دون تبديد طابعنا التربوي؟
- كيف نحول القراءة إلى خبرة جماعية وممارسة مجتمعية دون أن نبقى مستهلكين للمعرفة فقط؟
- كيف نشرك كل أعضاء المنتديات في صناعة القرارات والتخطيط للأنشطة دون الوقوع في العفوية والتخبط؟
- وكيف نعقلن الممارسة وننظم الفعل وننسقه دون الوقوع في الفردية أو هيمنة فرد أو فئة على المنتدى؟ بمعنى آخر، كيف نجمع بين طاقات الفعل الجماعي الارتجالي والفعل المنظم والمنسق؟ ما الصيغ والأشكال البنائية والهيكلية التي ستكفل للمنتديات البقاء كلقاءات طوعية جماعية تقوم على مبادرة الأفراد وعطائهم الذاتي، وتتسم بالشكل المنظم في الوقت نفسه؟

م.ر